﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

السُّؤالُ عن الوسيلةِ بعدَ تيقُّنِ حصولِ الغايةِ

لمّا سمعَ زكريّا عليه السلام البِشارةَ مِنْ ربِّهِ، واطمأنَّ إلى حصولِها؛ رَغِبَ في معرفةِ الوسيلةِ، وكيفَ سيتمُّ ذلكَ وتتحقَّقُ هذه البِشارةُ، والحالُ أنَّهُ قد بلغَ مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا وامرأتُهُ عاقرٌ؟[1]، فهو انتقالٌ من التَّبشيرِ إلى السُّؤالِ عن كيفيّتِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَغْتُ﴾: (بلغ) أصلٌ واحدٌ؛ وهو الوصولُ إلى الشَّيءِ[2]، والبُلوغُ: الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهى، مكانًا كانَ أو زمانًا أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرةِ، وربَّما يُعبَّرُ به عنِ المُشارَفةِ عليه وإنْ لم يُنتَهَ إليه، فمِنَ الانتهاءِ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]، ومِنَ المُشارَفةِ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2]؛ فإنَّها إذا بلغَتْ أقصى الأَجَلِ لا يصحُّ للزَّوجِ مُراجعتُها وإمساكُها[3]، ويقالُ: بلغَ زيدٌ مُرادَهُ، إذا وصلَ إلى ما يريدُ[4]، وبلغَ المكانَ بُلوغًا، إذا وصلَ إليه وانتهى[5]، ومعنى البلوغِ في الآيةِ؛ أنَّه بلَغَ مبلغًا لا مزيدَ عليه في الإياسِ مِنَ الإنجابِ.

2) ﴿ٱلْكِبَرِ﴾: (كبر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ[6]، وأصلُ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9034.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) الراغب، المفردات: (بلغ).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلغ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

الكِبَر أنْ يُستعملَ في الأعيانِ، ثمَّ استُعيرَ للمعاني، نحوُ قولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49][1]، والكِبْرُ: إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، وذلكَ أنْ يرى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِه[2]، والكِبَرُ: كثرةُ سِنيِّ العُمُرِ؛ لأنَّهُ يقارنُهُ ظُهورُ قِلَّةِ النَّشاطِ واختلالُ نظامِ الجسم[3].

3) ﴿عِتِيًّا﴾: "العينُ والتّاءُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على استكبارٍ"[4]، والعُتُوُّ: النُّبوُّ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: 21][5]، وعَتا الشَّيخُ، إذا ولَّى وكَبِرَ[6]، وقولُهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أي: حالةً لا سبيلَ إلى إصلاحِها بالنِّسبةِ لضَعْفي[7]، وذلكَ يكونُ إذا يَبِسَتْ مَفاصلُهُ وعِظامُهُ[8]، وقيلَ: ﴿عِتِيًّا﴾: طويلًا[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنُ جريءٌ في سؤالِه لمكانتِه عند ربِّه

حينَ جاءتِ البِشارةُ زكريّا ﷺ فرِحَ فرحًا شديدًا، وسألَ عنِ الوجهِ الَّذي يأتيه منهُ الولدُ، وقالَ: ربِّ مِنْ أيِّ وجهٍ يكونُ لي ذلكَ وامرأتي عاقرٌ لا تَلِدُ، وقد ضَعُفْتُ مِنَ الكِبَرِ عن إتيانِ النِّساءِ؟ وهذا شبيهٌ بسؤالِ إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]؛ فإنَّ من شأنِ الإيمانِ أن يبلُغَ بصاحبِه درجةً عاليةً منَ اليقينِ ليسألَ دونَ تردُّدٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

طريقةُ المحاوراتِ قائمةٌ على الفصلِ

فُصِلَتْ هذه الآيةُ عن سابقتِها، ولم تُعطَفْ عليها؛ لما بينَ الآيتينِ

(1) الراغب، المفردات: (كبر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتو).
(5) الراغب، المفردات: (عتو).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (عتو).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتو).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6.
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتو).

مِنْ شبه كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الآيةِ السّابقةِ المتضمِّنةِ للبِشارةِ، كأنَّهُ قيلَ: ما قالَ في جوابِ هذه البِشارةِ العُظمى؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[1]، وهذه طريقةُ المحاوراتِ في القرآن الكريم، أن تأتيَ على نهجِ الفصلِ.

غرضُ حذفِ أداةِ النِّداءِ:

ملاءمةُ الحذفِ لمقامِ القُربِ والمُناجاةِ

جاء لفظُ: ﴿رَبِّ﴾ موجزًا في قوله تبارك شأنُهُ: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ بحذفِ حرفِ النِّداءِ وياءِ المتكلِّمِ، ولم يُقَلْ: (يا ربّي) كما هو الأصلُ؛ لأنَّ مقامَ المُناجاةِ والإكرامِ والإحسانِ مقامُ قُربٍ وعِنايةٍ، فيناسبُهُ حذفُ الوسائطِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لمقامِ مُناجاةِ الكريمِ

اختيرَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ دونَ غيرِه في قولِ زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، فلم يُقَلْ مثلًا: (إلهي أنَّى يكونُ لي غُلامٌ)؛ لمناسبةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئِ عنِ الإحسانِ والتفضُّلِ لمقامِ مُناجاةِ الكريمِ سبحانَهُ الَّذي تفضَّلَ على زكريّا عليه السلام بتبشيرِه بهبةِ الوليِّ الوارثِ، والمعنى: أيُّها المُحسِنُ إليَّ بإجابةِ دُعائي دائمًا، وبتبشيري بالغُلامِ العظيمِ الشَّأنِ أنَّى يكونُ لي غُلامٌ[2].

غرضُ الاستفهامِ:

ثراءُ دلالةِ الاستفهامِ باحتمالِه وجوهًا مُتعدِّدةً

سألَ زكريّا عليه السلام ربَّهُ فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقد اختُلِفَ في توجيه غرضِ الاستفهامِ على أوجهٍ:

الأوَّل: الاستفهامُ للتعجُّبِ والاستبعادِ؛ ليُجابَ بما أُجيبَ بهِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

فيزدادَ المؤمنونَ إيقانًا، ويرتدعَ المُبطِلونَ، وإلّا فمُعتقَدُ زكريّا ﷺ أوَّلًا وآخِرًا أنَّ اللّهَ غنيٌّ عنِ الأسبابِ[1]، فيكونُ الاستبعادُ مِنَ المُبطِلينَ لا مِنَ السّائلِ؛ لأنَّ الأنبياءَ يعلمونَ أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[2].

الثّاني: إنَّما قالَهُ ﷺ معَ سبقِ دُعائِه بذلكَ وقوَّةِ يقينِه بقُدرةِ اللّهِ؛ استعظامًا لقُدرةِ اللّه تعالى، وتعجيبًا منها، واعتدادًا بنعمتِه تعالى عليه في ذلكَ، بإظهارِ أنَّهُ مِنْ مَحْضِ لُطْفِ اللّه ﷻ[3].

الثّالث: إنَّ طلبَ زكريّا ﷺ إنَّما كانَ ولدًا مِنْ حيثُ الجملةُ، وبحسَبِ ذلكَ أُجيبَ، وليسَ في الإجابةِ ما يدلُّ على أنَّهُ يولَدُ لهُ وهو هَرِمٌ، ولا أنَّهُ مِنْ زوجتِه وهي عاقرٌ، فاحتملَ عندَهُ أنْ يكونَ الموعودُ وهُما بهذه الحالةِ، واحتملَ أنْ تُعادَ لهما قوَّتُهما وشبابُهما، أو أنْ يكونَ الولدُ مِنْ غيرِ زوجتِه العاقرِ، فاستخبرَ أيكونُ الولدُ وهُما كذلكَ؟ فأُجيبَ بأنَّهُ يكونُ وهُما كذلكَ[4]، وعلى هذا يكونُ الاستفهامُ على حقيقتِه، ولا يكونُ للتّعجُّبِ والاستبعادِ[5]، وهذا الوجه هو أقربُ الأوجه، وهو ما يقتضيه ظاهرُ النَّظم، فإنَّ زكريّا ﷺ وقفَ أمامَ احتمالين، فإمّا أن يرجعَ قويًّا قادرًا على الإنجابِ، أو أن يحصل له أمرٌ خارقٌ فيُنجبَ، فهو يسألُ عن أيِّ الأمرين سيكون، لا أنَّه يتعجّبُ ممّا سيكون، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يرغبُ في عودةِ قوَّتِه وشبابِه إلى سابقِ عهدِها.

بلاغةُ استعمالِ أداةِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

اجتماعُ معنَيَي الكيفيَّةِ والمكانِ في (أَنَّى)

آثرَ النَّظم الكريمُ استعمالَ أداةِ الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وهي بمعنى (كيفَ)، أي: كيفَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 145.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 381، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4613، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.
(4) ابن المنير، الانتصاف: 3/ 6، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 198.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 575.

يكونُ لي غلامٌ؟ أو بمعنى المكانِ، من أين يكون لي غلامٌ؟ وإنَّما استفهمَ عنِ المكانِ؛ لتعذُّرِ عملِ المكانينِ اللَّذينِ هما سببُ التَّناسلِ، وهما الكِبَرُ والعُقْرُ، والمعنى: مِنْ أينَ يكونُ لي غلامٌ[1]؟ وبلاغةُ الاستعمالِ أنَّ هذه الأداة قد دمجت معنَيَي الكيفيَّةِ والمكانِ في لفظٍ واحدٍ.

نوعُ ﴿يَكُونُ﴾ ودلالتُها:

احتمالُ (يكون) للتَّمامِ والنُّقصانِ

﴿يَكُونُ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إمّا تامَّةٌ، و﴿أَنَّىٰ﴾ واللّامُ مُتعلِّقتانِ بها، أي: كيفَ أو مِنْ أينَ يَحدُثُ لي غلامٌ؟ ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ اللّامُ بمحذوفٍ وقعَ حالًا مِنْ ﴿غُلَٰمٌ﴾، أي: أنَّى يَحدُثُ كائنًا لي غلامٌ؟ أو ناقصةٌ اسمُها ظاهرٌ، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾ و﴿لِي﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أو هو الخبرُ و﴿أَنَّىٰ﴾ نصبٌ على الظَّرفيَّةِ[2]، ودلَّت ﴿يَكُونُ﴾ على الاستمراريَّةِ الثّابتةِ المصاحبةِ للحالِ، أي: يكونُ غلامٌ مصاحبًا لي.

دلالةُ تقديمِ ﴿لِي﴾ على ﴿غُلَٰمٌ﴾:

الاعتناءُ بما قُدِّمَ والتَّشويقُ إلى ما أُخِّرَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِي﴾ على ﴿غُلَٰمٌ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ - وهو حصولُ شيءٍ لهُ - على حاله من الكِبَرِ والعُقمِ، فكيف يكون له ذلك؟، أي: كيفَ أو مِنْ أينَ يَحدُثُ لي غلامٌ؟[3]، فالاستفهامُ متَّجهٌ لأن يكونَ له أكثرَ من كونِه غلامًا، وهو ما يدلُّ على أنَّ الاستفهام على حقيقتِه كما سبق بيانُ ذلك.

غرضُ تَنكيرِ ﴿غُلَٰمٌ﴾:

تفخيمُ شأنِ الغُلامِ بإيرادِه نكرةً

جيءَ بلفظِ الغُلامِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ نكرةً؛ لتفخيمِ شأنِه وتعظيمِه، لا سيَّما وقد وُصِفَ في الآيةِ السّابقةِ بأنَّ اسمَهُ يحيى، وأنَّهُ لم يتسمَّ بهذا الاسمِ أحدٌ قبلَهُ، فذلكَ ممّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 241.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 385.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256.

يدلُّ على أنَّ لهذا الغلامِ المُبشَّرِ به شأنًا عظيمًا، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للإفرادِ، والمعنى: أنَّى يكونُ لي فردٌ مِنْ أفرادِ الغِلْمانِ والحالُ كذا وكذا، وهذا هو الأظهرُ، وأمّا التَّعظيم والتَّشريف فمنتَزَعٌ منَ السّياقِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ للحالِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ للحالِ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ ضميرِ المتكلِّمِ في ﴿لِي﴾، أي: أنَّى يكونُ لي غُلامٌ والحالُ أنَّهُ كانَتِ امرأتي عاقرًا لا تَلِدُ[1]، وهذه الحال هي تأييدٌ للاستفهامِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي: ﴿وَكَانَتِ﴾:

العُقْرُ صفةٌ قديمةٌ لامرأةِ زكريّا عليه السلام

عُبِّرَ بالماضي في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ إعلامًا بتقادُمِ العهدِ في حالِ امرأةِ زكريّا عليه السلام، وأنَّ العُقْرَ صفةٌ قديمةٌ لها، وهي دائمةٌ على تلكَ الصِّفةِ عندَ الإخبارِ بالبُشْرى والسُّؤالِ عن كيفيَّةِ حصولِها[2]، حتَّى أصبحت هذه الصِّفةُ ملازِمةً لها، وعلامةً عليها.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ:

العقرُ راسخٌ في امرأةِ زكريّا عليه السلام كأنَّه صادرٌ عنها

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ دلالةً على تمكُّنِ صفةِ العُقْرِ في امرأةِ زكريّا عليه السلام، وأنَّها ثابتةٌ لها، وهي مستمرَّةٌ عليها[3]، ويَعضُدُ ذلكَ ما سبقَ مِنَ التعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَكَانَتِ﴾، وكأنَّ العقرَ فعلٌ صادرٌ عنها، وهذا أدعى في بيانِ رسوخِ العقرِ فيها.

علَّةُ حذفِ تاءِ التَّأنيثِ في ﴿عَاقِرٗا﴾:

جاءَ النَّظم الكريم وفقَ ما يقتضيه لسانُ العربِ من حذف تاءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 175، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 382، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 576.

(2) الواحدي، البسيط: 14/ 199، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530.

(3) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530.

التَّأنيثِ من وصف المرأة، فقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، ولم يُقَلْ: (وكانتِ امرأتي عاقرةً) بالتّاء؛ لأنَّ ما كانَ على (فاعلٍ) مِنْ صفةِ المُؤنَّثِ ممّا لا يتَّصفُ به المُذكَّرُ - لا تدخلُ فيه التّاءُ؛ نحوُ: امرأةٌ حائضٌ وحامل ومرضعٌ؛ لأنَّ التّاءَ للتَّفرقةِ بينَ الموصوفِ المُذكَّرِ والموصوفِ المُؤنَّثِ، ولا التباسَ هنا[1]؛ لأنَّ التّأنيث مأخوذٌ منَ الاختصاصِ.

علةُ التَّأنيثِ اللَّفظيّ الاشتراكُ وعند الاختصاصِ فيُحذفُ

نكتةُ تكرارِ زكريّا ﷺ وصفَ حالِه وحالِ امرأتِهِ:

تقدَّمَ في نداءِ زكريّا ﷺ أنَّهُ وصفَ نفسَهُ بالشَّيخوخةِ والكِبَرِ والضَّعفِ بقولِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ووصفَ امرأتَهُ بالعُقْرِ بقولِهِ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، وقد كرَّرَ ذلكَ هنا فقالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، والجوابُ عن ذلك: أنَّهُ في مقامِ السُّؤالِ عن كيفيَّةِ حصولِ الولدِ معَ انتفاءِ أسبابِ الحصولِ العاديَّةِ، فأعادَ ذكرَ الموانعِ[2]، فالوصفُ في الجملةِ السّابقة لبيانِ الحالِ تمهيدًا للطلبِ، أمّا هنا فللسُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستجابةِ والحال ما ترى؟

التَّكرارُ بحسبِ المقامِ من التمهيدِ للطَّلبِ والسُّؤالِ عن الكيفيَّةِ

توجيهُ المتشابه اللَّفظيّ في التَّقديمِ والتَّأخير:

قدَّمَ زكريّا ﷺ في ندائِه ذكرَ حالِ نفسِه على ذكرِ حالِ امرأتِه، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، وعكسَ هنا فقدَّمَ ذكرَ حالِ امرأتِه على حالِ نفسِه، فقالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، وذلكَ يقتضي أنَّ زكريّا ﷺ كانَ يظنُّ أنَّ عدمَ الولادةِ بسببِ عُقْرِ امرأتِه، وكانَ النّاسُ يَحسَبونَ ذلكَ إذا لم يكنِ الرَّجلُ عِنّينًا أو خَصيًّا، وهذا خطأٌ؛ فإنَّ عدمَ الولادةِ يكونُ إمّا لعلَّةٍ بالمرأةِ في رَحِمِها، أو لعلَّةٍ في ماءِ الرَّجلِ، يكونُ غيرَ صالحٍ لنَماءِ البوَيْضاتِ الَّتي يُبرِزُها رَحِمُ

أرادَ ﷺ أن يعلمَ أنَّ الإنجابَ سيكونُ من امرأتِه أو من غيرِها

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 513، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 18.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.

المرأةِ[1]، إضافةً إلى أنَّ تأخيرَ ذكرِ حالِ نفسِه يترتَّبُ عليه وقوعُ ﴿عِتِيًّا﴾ في آخرِ الآيةِ، وفي ذلكَ مراعاةٌ للفاصلةِ[2].

والذي يظهر أنَّ التّقديمَ في الأولى باعتبارِه هو الطّالبُ للإنجابِ، فتكلَّم عن حالِ نفسِه، وفي الثّانيةِ قدَّمَ ذكرَ امرأته؛ لأنَّه استُجيبَ له؛ فأرادَ أن يعلمَ أنَّ الإنجابَ سيكون من هذه المرأةِ أو من غيرِها فبدأ بها، وذكرَ حالَ نفسِه استتمامًا للسُّؤالِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حالٌ مِنْ ياءِ المتكلِّمِ في قولِه: ﴿لِي﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حالٌ أيضًا، والمقصودُ مِنَ الإتيانِ بالحالَينِ تأكيدُ الغرضِ المَسوقِ لهُ الكلامُ، وهو التَّعجيبُ أوِ الاستفهامُ الحقيقيُّ، على الخلافِ المذكورِ سابقًا في غرضِ الاستفهامِ، والمعنى: أنَّى يكونُ لي غلامٌ والحالُ أنَّ امرأتي كانَتْ عاقرًا لم تَلِدْ في شبابِها وشبابي، فكيفَ وهي الآنَ عجوزٌ، وقد بلغتُ أنا مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا؟[3].

الحالُ تأتي لتأكيدِ المعنى والكشفِ عمّا في النَّفسِ

دلالةُ أداةِ ﴿وَقَدْ﴾:

تفيدُ ﴿وَقَدْ﴾ الدّاخلةُ على الفعلِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ التَّحقيقَ والتَّأكيدَ، أي: وقد تحقَّقَ وتأكَّدَ بُلوغي مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا، وصارَ أمرًا لا شكَّ فيه ولا امتراءَ، وهو أمرٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ.

بُلوغُ زكريّا عليه السلام مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا أمرٌ مُحقَّقٌ مُؤكَّدٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ البُلوغِ:

لفظُ البُلوغِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مجازٌ في حُلولِ إبّانِ الشَّيخوخةِ[4]، وهذا التَّعبيرُ يوحي بأنَّ المرتبةَ

البُلوغُ مجازٌ في حُلولِ إبّانِ الشَّيخوخةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.
(2) الكرماني، البرهان، ص: 89.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

العاليةَ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ بمنزلةِ مَقْصِدٍ بعيدٍ كانَ يسيرُ إليه زكريّا عليه السلام، وقد وصلَ إليهِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للغرضِ المرادِ مِنَ الاستفهامِ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

الثَّراءُ الدّلاليُّ، ووفرةُ النَّظم في الإمكانِ التَّأويليِّ

﴿مِنَ﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ للتَّبعيض، حالٌ مِنْ ﴿عِتِيًّا﴾، أي: بلغتُ عِتيًّا حالَ كونِه بعضَ مراتبِ الكِبَرِ، قُدِّمَتْ؛ لأنَّ صاحبَها نكرةٌ[1]، أو للابتداء، أي: بلغتُ سِنًّا عاليةً ابتداؤُها جهةُ الكِبَرِ، أو للبيانِ والتَّجريد، أي: انتُزِعَ مِنْ مَدارجِ الكِبَرِ ومراتبِه مرتبةٌ تُسمَّى عِتيًّا.

توجيهُ تخصيصِ زكريّا عليه السلام الكِبَرَ بالذِّكرِ:

المانعُ الوحيدُ مِنَ إنجابِ زكريّا عليه السلام كِبَرُ السِّنِّ

يظهرُ من الآيةِ أنَّ زكريّا عليه السلام كانَ يعرفُ مِنْ نفسِه أنَّهُ ليسَ فيه مانعٌ مِنَ الإنجابِ سوى الشَّيخوخةِ، ولذلكَ ذكرَ الكِبَرَ، ولم يَذْكُرْ غيرَهُ مِنَ الموانعِ، فقالَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2]، وهذا الظّاهر يدلُّ على أنَّ زوجَه كانت على خلافِ حالِه فيما سبقَ مِنَ الزَّمانِ.

نوعُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْكِبَرِ﴾:

اللّامُ في لفظِ الكبرِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ لامُ الجنسِ والحقيقةِ، والمعنى: وقد بلغتُ مِنَ الجنسِ المُسمَّى بالكِبَرِ مرتبةً عاليةً تَحولُ بَيني وبينَ الإنجابِ.

توجيهُ إعرابِ ﴿عِتِيًّا﴾:

(عِتيًّا) مفعولٌ به على الأظهرِ

يحتملُ ﴿عِتِيًّا﴾ في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أربعةَ أوجهٍ مِنَ الإعرابِ، فهي إمّا مفعولٌ بهِ، أي: بلغتُ عِتيًّا مِنَ الكِبَرِ، وعلى هذا يجوزُ أنْ يتعلَّقَ ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾ بـ ﴿بَلَغْتُ﴾، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ مِنْ ﴿عِتِيًّا﴾؛ لأنَّهُ في الأصلِ صفةٌ لهُ، وهو الأظهرُ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 576، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

وإمّا مصدرٌ مُؤكِّدٌ؛ لأنَّ بُلوغَ الكِبَرِ في معنى العِتيِّ، وإمّا مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ مِنْ فاعلِ ﴿بَلَغْتُ﴾، أي: وقد بلغتُ مِنَ الكِبَرِ حالَ كوني عاتيًا، أو ذا عِتيٍّ، وإمّا تمييزٌ[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

تعدُّدُ الأوجُهِ اللَّفظيَّةِ والمعنَى واحدٌ

قرأَ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿عِتِيًّا﴾ بكسرِ العينِ، وقرأَ الباقونَ بضمِّها: ﴿عُتِيًّا﴾[2]؛ أمّا كسرُ العينِ فإتباعٌ للكسرةِ الَّتي بعدَها، ومجانسةٌ للياءِ، وأمّا ضمُّ العينِ فعلى الأصلِ[3]، والمعنى على القراءتينِ واحدٌ، فهو اختلافٌ في اللَّفظِ لا في الدّلالةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿عِتِيًّا﴾:

تشبيهُ العِظامِ بالأعوادِ اليابسةِ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ

في استعمالِ العِتيِّ في جملة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فالعتيّ اليابس من العود، حيثُ شُبِّهَتْ عِظامُ زكريّا ﷺ بالأعوادِ اليابسةِ على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وأُثبِتَ لها وصفُ العِتيِّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّخْييليَّةِ[4]، وهذا على تشبيه العتيِّ بالأغصانِ اليابسةِ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هذه الآيةُ معَ قولِه سبحانَهُ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، حيثُ تتَّفقُ الآيتانِ في ذكرِ الموانعِ مِنَ الإنجابِ بحسَبِ الأسبابِ العاديَّةِ، وتختلفانِ مِنَ الآتي:

أوّلًا: أنَّهُ جعلَ نفسَهُ هنا بالغًا الكِبَرَ، فقالَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقالَ في آيةِ آلِ عمرانَ: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: 40]، فجعلَ الكِبَرَ بالغًا لهُ، وأصلُ المعنى واحدٌ؛ لأنَّ ما بَلَغَكَ مِنَ المعاني فقد بَلَغْتَهُ، نحوُ: أدركَني الجَهْدُ، وأدركتُ الجَهْدَ[5].

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 569.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 571، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 368.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(5) الراغب، المفردات: (بلغ)، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

ثانيًا: أنَّهُ بدأَ هنا بذكرِ حالِ امرأتِه على عكسِ ما في سورةِ آلِ عمرانَ؛ لأنَّهُ قد ذكرَ حالَهُ في أثناءِ دعائِهِ، وإنَّما المذكورُ هنا بُلوغُهُ أقصى مراتبِ الكِبَرِ تتمَّةً لما ذكرَهُ قبلَ ذلكَ، وأمّا في سورةِ آلِ عمرانَ فلم يَسبِقْ في الدُّعاءِ ذكرُ حالِهِ، فلذلكَ قدَّمَهُ على ذكرِ حالِ امرأتِهِ؛ لأنَّ المسارعةَ إلى بيانِ قُصورِ شأنِه أنسبُ[1].

وقيلَ: أخَّرَ ذكرَ الكِبَرِ هنا؛ ليوافقَ ﴿عِتِيًّا﴾ فواصلَ الآياتِ الأخرى، وهو بابٌ مقصودٌ في الفصاحةِ يترجَّحُ إذا لم يُخِلَّ بالمعنى[2]، وقيلَ: يحتملُ تكرُّرُ الدُّعاءِ، واختلافُ الأسلوبِ للتّفنُّنِ[3]، ولا يخلو الحملُ على التَّكرارِ مِنَ البُعْدِ والتَّكلُّفِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

(2) الكرماني، البرهان، ص: 89، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 127، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/ 136، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 85.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»